

الأمة المرشحة للنهوض هي تلك التي تعتز بماضيها وتفتخر بتاريخها، مستمدة منه ما يشعل الحماس ويلهب المشاعر لتحقيق إنجاز مشرف في حاضرها ومستقبلها. ولذا لم تغفل الدول الواعية حضاراتها السحيقة وتراثها القيمي والتاريخي، بل تغنت به وسطرتة في مناهجها التعليمية، وأرضعته لأبنائها، فتناقلوه جيلاً بعد جيل. ولعل من أهم منافع الاهتمام بالتراث هو زرع الثقة بالذات، والكفر بالتبعية الذليلة للآخرين، وإيجاد نفسية التحدي، والتخلص من عقدة النقص، والشعور بالعزة والكرامة والإباء. ففي فترات التخلف تضعف الثقة بالنفس، وينبهر الضعيف بإنجازات القوي، فيبدأ يقلده في كل شيء حتى في تسريحة الشعر ونوعية اللباس وطريقة الأكل وطبيعة الكلام، بل ويتبعه شبراً بشبر وذراعاً بذراع، ويجري وراء كل تافهة تخرج من القوي دون وعي أو تفكير، وهذا شأن الضعفاء عبر التاريخ.

ولذلك لا تعجب كثيراً عندما ترى بعض العرب ينتطعون باستخدام الكلمات الإنجليزية بسبب وبدون سبب، ولا تعجب عندما ترى بعض المؤسسات التعليمية تتسابق في توظيف الخواجات لتعليم أبنائنا وبناتنا، ولا تعجب كذلك عندما تصبح اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية في عدد من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية في بلادنا العربية والإسلامية، كما لا تعجب عندما يستमित بعض العرب والمسلمين في مغازلة الأمريكان وإرضائهم ومن ثم إرضاء طفلتهم المدللة إسرائيل.

نعم، لقد انبهر نفر من أبناء جلدتنا بالحضارة الغربية التي أنتجت التكنولوجيا الحديثة، فطارت بالإنسان إلى السماوات، واخترقت به بطون الأرض، وغاصت بجسده في أعماق المحيطات، وفجرت باختراعاته الجبال الراسيات، بل وجعلت العالم الفسيح وكأنه قرية صغيرة، أو ربما حارة ضيقة، ينتقل فيها الإنسان من أقصاه إلى أدناه في سويعات من ليل أو نهار.

ووصل حال بعض المنبهرين (من العرب والمسلمين) بإبداعات الغرب أن فقدوا الثقة بأنفسهم وبحضاراتهم، لذا يصرخ أحدهم قاتلاً: إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رثتهم، والنجاسات التي في أمعائهم.

وكتب آخر في كتابه (اليوم والغد) فقال: يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوروبا، فإنه كلما ازدادت معرفتي بالشرق ازدادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكما

ازدادت معرفتي بأوروبا ازداد حبي لها وشعوري بأنها مني وأنا منها، هذا هو مذهبي الذي أعمل به طول حياتي، سرّاً وجهراً، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب!!
وأكمل ثالث المشوار فقال في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر ": سبيل النهضة بيّنة واضحة مستقيمة، ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يجب منها وما يكرهه، وما يحمد منها وما يعاب.

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورّد يا سعد الإبل

إننا لسنا هنا ضد الاستفادة مما عند الآخرين، بل إننا ندعو لذلك ونشجع عليه، ونعتبره عين الحكمة، كما وينبغي أن نجوب الدنيا شرقاً وغرباً سعياً وراء كل فائدة يمكننا بها خدمة أمتنا والنهوض بها، ولكننا هنا ضد هذا الانبهار الذي يودي بصاحبه إلى عقدة النقص، ويولد الهزيمة النفسية، ويسبب تبعية مزرية للآخرين، ويمنع من تحدي الأقوياء ومنافستهم، ويجول دون المبادرات الفذة والإنتاجات المبدعة، بل ويفقد الثقة بالنفس والولاء لهذه الأمة.

لقد أصبح حال بعض المفتونين من أبناء أمتنا بثقافة الغرب كما قال الخليفة العباسي المهدي:

أرى ماءً وبي عطشٌ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكيني وأن الناس كلهم عبيدي
وأنت لو قطع يدي ورجلي لقلت من الرضا: أحسنت، زيدي

وما أروع ما قاله الحاكم الأندلسي المعتمد بن عباد (حاكم إشبيلية) حينما خيّر بين موالاته الفرنجة والتعاون معهم وبين موالاته المسلمين والتعاون معهم، فاختار الثاني وقال: " والله لئن أرعى الإبل في المغرب خير من أن أرعى الخنازير في أوروبا ".

إن الغريب في هؤلاء المتأثرين بغيرنا، من أبناء جلدتنا ومن يحملون أسماءنا، أنهم نسوا أو تناسوا وغفلوا أو تغافلوا ذاك الإبداع الحضاري الذي أنتجته أمتنا طوال أكثر من اثني عشر قرناً من الزمان، يوم أن كانت أوروبا تغط في سباتها، راقدة على فراش جهلها، ملتحفة لحاف تخلفها، تلفها ظلمات بعضها فوق بعض.

د. علي الحمادي

رئيس مركز التفكير الإبداعي

ورئيس مركز الدقيقة الواحدة

والمشرف العام على الموقع الإلكتروني إسلام تايم